أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ

٢٢٢
رمل الرملي ، محمد شومان
ألهاكم التكاثر / محمد شومان الرملي .-
عمّان : دار الحسن للنشر ، ٢٠٠١
(٤٨) ص
ر.أ (١٢٥ / ١ / ٢٠٠١)
الواصفات // الدين الإسلامي / القرآن الكريم /
// تفسير /
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٢٠٠١/١/٢٢٢
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية ٢٠٠١/١/١٢٥

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

دار الحسن للنشر والتوزيع

هاتف ٤٦٤٨٩٧٥ ـ فاكس ٤٦٤٨٩٧٥ ـ ص.ب ١٨٢٧٤٢ ـ عمّان ١١١١٨ ـ الأردن

ألهاكم التكاثر

تأليف

محمد شومان بن أحمد الرملي

دار الحسن للنشر والتوزيع

ISBN 9957 - 10 - 009 - 2

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد، فهذه ورقات أصلها محاضرة كنت قد ألقيتها في مسجد «أم القرى» من مساجد عاصمة الأردن، رأيت لما رَغِبَ إليَّ جماعة من الخَيِّرين أن أجعلها مدونة مكتوبة، ليَعُمّ نفعها ويكثر أجرها، إن شاء الله تعالى.

وهي بعنوان: **«ألهاكم التكاثر»**.

سائلاً الله تعالى أن ينفع بها القراء، وأن يكتب لي ولهم الأجر الحسن، وأن يجعلها في ثوابي

وحسناتي: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وكتب

محمد شومان

١٤٢١هـ

* * * * *

ألهاكم التكاثر

قال الله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۞ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۞ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۞ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿**ألهاكم**﴾؛ أي: ألهاكم وشغلكم عما ينفعكم عند مليككم وينجيكم من عقابه، فلم تُقَدِّموا لآخرتكم الآتية، ولم تعملوا لحياتكم الباقية.

﴿**التكاثر**﴾؛ وهو كل ما يُتكاثر به ويُتباهى من المال والولد وغيرهما من كل الأشياء، لأن الله تعالى أطلقه ولم يقيده بشيء مما يُتكاثر به.

قال ابن القيم: ولم يعيّن سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء، لا

المتكاثر به، كما يقال: شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وإما إرادة الإطلاق، وهو كل ما كاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا، من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس، أو علم لا يُبْتَغى به وجه الله، أو عمل لا يقربه إلى الله. فكل هذا من التكاثر المُلهي عن الله والدار الآخرة.

قلت: وأعظم ما يُتكاثر به وأشهره المال والولد، كما قال الله تعالى:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾(١).

فخص سبحانه بالذكر أصول وأهم ما يُتكاثر به: وهو الأموال والأولاد.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول

---

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) سبأ: ٣٥.

الله ﷺ يقول:

«لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ مِلْءَ وَادٍ مَالاً لأَحَبَّ أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلَهُ، وَلاَ يَمْلأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلُغُ النبي ﷺ قال:

«قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ: طُولُ الحَيَاةِ، وكَثْرَةُ المَالِ»(٢).

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾، قال:

«يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. قال: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟!»(٣).

أي: تصدقت فأنفذت إلى الآخرة وادخرت فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٢٥٣ ـ فتح)، ومسلم (١٠٤٩)، وغيرهما، وأخرجاه عن غير ابن عباس أيضاً.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٦)، والترمذي (٢٣٣٨)، وغيرهما.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) وغيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«يَقُولُ العَبْدُ: مَالِي مَالِي. إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ»[1].

قوله ﷺ: (أعطى فاقتنى)؛ أي: ادخر لآخرته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ بَعْدِي الفَقْرَ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ التَّكَاثُرَ، وَمَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الخَطَأَ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ التَّعَمُّدَ»[2].

وعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها... فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعتْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٩) وغيره.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٤٧٩ ـ موارد)، والحاكم (٢ / ٥٣٤)، وغيرهما، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» برقم (٢٢١٦).

الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة، فوافَوْا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فَتعرَّضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال:

«أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ البَحْرَيْنِ؟» فقالوا: أجل يا رسول الله. قال:

«فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ؛ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(١).

فصل

وما تكاثر به الناس من المال والولد لن ينفع أصحابه عند الله تعالى، إنما النافع الإيمان والعمل الصالح.

قال عز وجل: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٥ - فتح)، ومسلم (٢٩٦١)، وغيرهما، ولعله في مواضع أخرى من «الصحيحين».

مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾(1).

وقال سبحانه: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(2).

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾(3).

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾(4).

وقال سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾(5).

فهذا هو النافع عند الله: الإيمان والعمل الصالح والكلم الطيب، وهو الذي ينبغي أن يُعلِّق العبد أمله عليه

---

(1) آل عمران: ١٠ و١١٦، والمجادلة: ١٧.

(2) الممتحنة: ٣.

(3) التغابن: ١٤.

(4) سبأ: ٣٧.

(5) الكهف: ٤٦.

في الآخرة.

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(١).

فالنافع سلامة القلب من الشرك والبدع والمعاصي، بأن يكون صاحبه موحداً سنياً مطيعاً لله عز وجل، قد سلم من كل شهوة تعارض الإيمان، ومن كل شبهة تضاد اليقين، وسلم لله تعالى واستسلم، وسلِم منه عباد الله؛ فلا غش فيه ولا حقد ولا حسد.

وإن نفع العبدَ شيءٌ من ماله فما قدمه لله تعالى، وإن نفع شيء من ولده فمن كان من أهل الإيمان والعمل الصالح، فهذا ينفعه بدعائه في الدنيا وشفاعته في الآخرة إذا أذن له الله عز وجل ورضي قوله.

وإلا فقد قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٢).

---

(١) الشعراء: ٨٨ و٨٩.

(٢) عبس: ٣٤ـ٣٧.

وقال سبحانه: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[1].

هذا؛ والأكثرون هم الأقلون يوم القيامة، وهم الأخسرون الأذلون، فخسروا من حيث أرادوا الفوز، وذلوا من حيث أرادوا العزة، فجوزوا وعوقبوا من جنس أعمالهم، وانعكس عليهم مرادهم، فجعل الله عاقبة ما كانوا فيه من الكثرة التي لم يؤدوا حق الله فيها قلةً وذلةً وخسارة، كما روى أبو ذر رضي الله عنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال:

«هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ».

قال: فجئت حتى جلست، فلم أَتَقَارَّ[2] أن قمت، فقلت: يا رسول الله، فداك أبي وأمي! من هم؟ قال:

«هُمُ الأَكْثَرُونَ أَمْوَالاً، إِلاَّ مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا ـ من بين يديه وعن يمينه وعن شماله ـ وَقَلِيلٌ مَا

---

(١) المعارج: ١١ ـ ١٤.

(٢) أي: لم ألبث.

هُمْ» الحديث[1].

وفي رواية: «الأَكْثَرُونَ هُمُ الأَسْفَلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، إلاّ مَنْ قَالَ بِالمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«وَيْلٌ لِلْمُكْثِرِينَ، إلاّ مَنْ قَالَ بِالمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» أربع: عن يمينه، وعن شماله، ومن قدامه، ومن ورائه[2].

(**تحذير**): كثير من الناس يغتر بكثرة ما خوّله الله تعالى من النعم، وخاصة نعمتي المال والولد، فيظن جاهلاً أن الله إنما أمده بذلك وزاده منه لما له عند الله من الخير والمنزلة.

هذا وهو مقيم على معصية الله! فهذا من أشد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٣ - فتح)، ومسلم (٩٩٠) واللفظ له، ولعله في مواضع أخرى من «الصحيحين»، والرواية الثانية في «سنن ابن ماجه» (٤١٣٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٢٩) وغيره، وهو في «الصحيحة» (٢٤١٢).

الغرور وأعظم الحمق.

وقد قال سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ لَهُ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ»، ونزع بهذه الآية: **﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾**[2][3].

---

(١) المؤمنون: ٥٤ـ٥٦.

(٢) الأنعام: ٤٤ و٤٥.

(٣) أخرجه أحمد (٤ / ١٤٥)، وابن جرير في «تفسيره» (١٣٢٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠) واللفظ له، وغيرهم، وحسّن العراقي إسناده في «تخريج الإحياء» (٤ / ١٣٢).

فصل

قوله تعالى: ﴿حتى زرتم المقابر﴾؛ يعني: ألهتكم الأموال والأولاد وغيرها، واستمرت بكم الغفلة حتى آل أمركم وانتهى سعيكم إلى أن متم ودفنتم في القبور، التي ما هي بالمقر النهائي لكم، بل دخولكم إياها ما هو إلا زيارة قصيرة وبرهة من الزمان، سرعان ما تنتقلون منها إلى القيامة ثم إلى جنة أو نار.

فقوله تعالى: ﴿زرتم﴾؛ دليل على البعث والنشور.

وعن ميمون بن مهران قال: قرأ عمر بن عبد العزيز ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فبكى، ثم قال: ﴿حتى زرتم المقابر﴾: ما أرى المقابر إلا الزيارة، ولا بد لمن يزورها أن يرجع إلى الجنة أو إلى النار[1].

وروى عبد الرزاق وابن جرير في «تفسيريهما»، عن قتادة: ﴿ألهاكم التكاثر﴾؛ قالوا: نحن أكثر من بني

---

(١) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٤٢٥).

فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلاَّلاً.

وروى ابن جرير عن قتادة: ﴿**ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر**﴾، قال: كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أكثر من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم.

قال ابن القيم: وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها، إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه، فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابِق بين هذا وبين حال أكثر الخلق.

فصل

وقوله تعالى: ﴿**كلا سوف تعلمون**﴾؛ «كلا»: ردع عن الاشتغال بالتكاثر وزجر عن ذلك، والمعنى كما قال ابن جرير: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿**كلا**﴾؛ ما هكذا ينبغي أن تفعلوا؛ أن يلهيكم التكاثر.

قال: وقوله: ﴿سوف تعلمون﴾؛ يقول جل ثناؤه: سوف تعلمون إذا زرتم المقابر أيها الذين ألهاكم التكاثر غِبَّ فعلكم واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم.

قال القاسمي: ﴿سوف تعلمون﴾؛ أي: مغبة ما أنتم عليه في الآخرة، من وخامة عاقبة الاشتغال بهذه الشهوات السريعة الزوال، العظيمة الوبال، لبقاء تبعاتها.

قال ابن جرير: وقوله: ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾؛ يقول: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا؛ أن يلهيكم التكاثر بالأموال وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، ما تلقون إذا زرتموها، من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم بالتكاثر. وكرر قوله: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ مرتين؛ لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد كرّروا الكلمة مرتين.

قلت: وفرق ابن القيم بين الكلمتين، فقال: وقوله: ﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون﴾، قيل: تأكيد لحصول العلم، كقوله: ﴿كلا سيعلمون. ثم

كلا سيعلمون﴾، وقيل: ليس تأكيداً، بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر، وهذا قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره، مع فخامة المعنى وجلالته، وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المُحْتَضَر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً يقينياً، هو فوق العلم الأول.

قلت: وذكر وجهين آخرين.

فصل

وقوله تعالى: **﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾**؛ زجر وردع مرة ثالثة. قال ابن جرير: ما هكذا ينبغي أن تفعلوا؛ أن يلهيكم التكاثر أيها الناس، لو تعلمون أيها الناس علماً

يقينياً أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم، ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادته والانتهاء إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقاً على أنفسكم من عقوبته.

قلت: فجواب لو محذوف، وليس جوابها: ﴿لترون الجحيم﴾، بل هذه جملة مستأنفة.

قال الزمخشري: ﴿لو تعلمون﴾ محذوف الجواب؛ يعني: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين؛ أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التي وَكَّلتم بعلمها هممكم، لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه، ولكنكم ضلال جهلة. اهـ.

ومعنى: ﴿علم اليقين﴾: العلم الذي يباشر القلوب وتجزم به النفوس ويرسخ فيها، فلا تزلزله الشكوك، ولا تضعفه الشبه، لو حصل هذا العلم، واستحضرته القلوب، وتفكرت فيه العقول، من أن دين الله حق، والآخرة لا ريب فيها، وأنها ثواب وعقاب، وتزودت من تفاصيل ذلك، لما ألهاها شيء من الدنيا عن الاستعداد

لمعادها، ولما ضيعت العمر النفيس في التكاثر في مطالب الهوى الخسيس، ولما اشتغلت بشيء من الدنيا إلا ما كان فيه عون على أمر الآخرة.

هذا، والله عز وجل لم يحرم على عباده ما أحل لهم من الطيبات والنعيم، بل خلقها لهم، لكن أن يقصدوا التكاثر فيها فتلهيهم عنه عز وجل فلا.

فصل

وقوله تعالى: ﴿**لترون الجحيم**﴾؛ قسم معناه: والله لترون الجحيم.

قال الآلوسي: قسم مضمر أكد به الوعيد وشدد به التهديد، وأوضح به ما أُنذروه بعد إبهامه تفخيماً. اهـ.

قلت: يعني بقوله: «أوضح به ما أُنذروه»؛ أي: في قوله تعالى: ﴿**كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**ثم لترونها عين اليقين**﴾؛ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات، فهو أحق بأن يكون

عين اليقين، فعين بمعنى النفس. قاله الآلوسي.

قال: وجوز أن تكون الرؤية الأولى إذا رأتهم من مكان بعيد، والثانية إذا وردوها أو إذا دخلوها، أو الأولى إذا وردوها والثانية إذا دخلوها، أو الأولى المعرفة والثانية المشاهدة والمعاينة. اهـ.

قلت: وقالوا في رؤية المعرفة: صارت الجحيم بسبب قوة اليقين كأنها رأي العين مشاهدة للأبصار.

وأقول: لكن قال المنتجب في «الفريد»: الرؤية هنا من رؤية العين، و«ترى» إذا كان من رؤية العين تتعدى إلى مفعول واحد، تقول: رأيت زيداً. اهـ.

فصل

وذكر الله سبحانه في كتابه العزيز أن الجحيم تبرز في القيامة، وبيَّن كيف تكون حال المجرمين عند ذلك، فقال سبحانه:

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾[1].

---

(١) النازعات: ٣٦.

وقال سبحانه : ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾[1] .

أي : جعلت في البراز ظاهرة لكل أحد، قد هيئت لأهلها واستعدت لأخذهم منتظرة لأمر ربها. قاله ابن سعدي .

وقال سبحانه : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾[3] .

قال ابن كثير : أي أنهم لما عاينوا جهنم حتى جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها؛ ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإنّ توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز، وقوله : ﴿**لم يجدوا عنها مصرفاً**﴾ ؛ أي : ليس لهم

---

(١) الشعراء : ٩١ .

(٢) الكهف : ١٠٠ .

(٣) الكهف : ٥٣ .

طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها.

قال ابن سعدي: وفي هذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

وقال عز وجل: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[1]

وفي «صحيح مسلم»[2] وغيره، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

هذا، ويقال للمجرمين:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[3].

---

(١) الفجر: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) (رقم ٢٨٤٢).

(٣) يس: ٦٣ و٦٤.

وقال سبحانه: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾[1].

فصل

وقوله تعالى: ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾؛ قال ابن جرير: ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟ اهـ.

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ قال الزبير: يا رسول الله، وأي النعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: التمر والماء! قال:

«أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾، قال الناس: يا

---

(١) الرحمن: ٤٣ و٤٤.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٦) وغيره، وحسن إسناده الألباني رحمه الله.

رسول الله، عن أي النعيم نسأل؟ فإنما هما الأسودان، والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا! قال:

«إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ»[1].

وعنه رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا». فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً! فقال لها رسول الله ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟» قالت: ذهب يستعذب لنا الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسْرٌ وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المُدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إِيَّاكَ وَالحَلُوبَ». فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٧) وغيره، وحسنه الألباني بالذي قبله.

ﷺ لأبي بكر وعمر:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»[1].

(وفي رواية): قال رسول الله ﷺ:

«هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ».

فصل

وقالوا في تفسير ﴿النعيم﴾:

الأمن والصحة:

روى ابن جرير في «تفسيره» عن مجاهد: ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾؛ قال: الأمن والصحة.

وروى عن سفيان: ﴿**لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾؛ قال: الأمن والصحة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨)، والترمذي (٢٣٦٩) بالرواية الثانية، وغيرهما.

وروى عن الشعبي قال: النعيم المسؤول عنه يوم القيامة: الأمن والصحة.

السمع والبصر وصحة البدن:

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿**لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، قال: يسأل الله العباد فيم استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾[1].

وروى عن الحسن: ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾؛ قال: السمع والبصر وصحة البدن.

العافية:

روى ابن جرير عن أبي جعفر: ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾؛ قال: العافية.

الطعام والشراب:

تقدم حديث أبي هريرة.

---

(١) الإسراء: ٣٦.

وروى ابن جرير عن بكير بن عتيق قال: رأيت سعيد بن جبير أُتِي بشربة عسل، فشربها وقال: هذا النعيم الذي تسألون عنه.

فصل

في بيان أن كل ما تقدم هو من النعيم الذي يسأل عنه العبد يوم القيامة وأن الآية تشمل كل أنواع النعيم

قلت: بما أنه لم يأت عن الله تعالى ولا عن رسوله ﷺ ما يصرح أن كذا فقط هو النعيم المقصود بالآية، فإن الآية تبقى على ظاهرها من أن العبد يسأل يوم القيامة عن النعيم، ولم يحدد نعيم يسأل عنه دون آخر، فإذا كان الأمر كذلك فيحمل المعنى على الشمولية، وأن كل نعيم يدخل في السؤال المذكور في هذه الآية.

ومن فسر النعيم بنوع منه دون آخر، لم يقصد تقييده بذلك النوع، وإنما هو من تفسير الشيء ببعض أجزائه.

ومما يدل على ذلك أنه تقدم قول مجاهد: الأمن والصحة. كما روى عنه ابن جرير.

هذا وروى عنه في قوله تعالى: ﴿ثم لتسألن يومئذ

عن **النعيم﴾**؛ قال: عن كل شيء من لذة الدنيا.

وروى عن قتادة قوله: **﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾**: إن الله عز وجل سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه.

وروى عنه أيضاً: إن الله تعالى ذكره سائل كل ذي نعمة فيما أنعم عليه.

فصل

هذا ونعم الله كثيرة لا تعد ولا تحصى، كما قال سبحانه:

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾(1).

قال الشنقيطي: وأصول هذه النعم أولها الإسلام:
﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(2).

---

(1) النحل: ١٨.

(2) المائدة: ٣.

فصل

ومما يسأل عنه العبد من النعيم نعمة السمع والبصر والفؤاد، كما تقدم من قول ابن عباس.

وتقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

قلت: حقيقة السؤال عن هذه، أن يسأل هل أدى شكرها، وهل استعملها في طاعة الله وحفظها أم عصى الله تعالى بها؟!

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما؛ قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وَبَصَراً وَمَالاً وَوَلَداً، وَسَخَّرْتُ لَكَ الأَنْعَامَ وَالحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؛ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ يَوْمَكَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ لَهُ: اليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا

---

(١) الإسراء: ٣٦.

نَسِيتَنِي»[1].

(وفي رواية): عن أبي هريرة وحده قال:

«فَيَلْقَى العَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي».

وقوله ﷺ: (تربع)؛ قال النووي في «شرح مسلم»: أي تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها، يقال: ربعتهم؛ أي: أخذت ربع أموالهم، ومعناه: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً.

قال: وقال القاضي بعد حكايته نحو ما ذكرته: عندي أن معناه: تركتك مستريحاً لا تحتاج إلى مشقة وتعب، من قولهم: اربع على نفسك؛ أي: ارفق بها.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٨)، والرواية الثانية أخرجها مسلم (٢٩٦٨) وغيره.

«لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»(١).

فصل

في ذكر أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ - يعني العبد من النعيم - أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ ونُرْوِيَكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٦) وغيره، وأودعه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» برقم (٩٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨) بهذا اللفظ، وابن حبان (٢٥٨٥ - موارد)، والحاكم (٤ / ١٣٨)، وغيرهم.
وقال الحاكم: «صحيح»، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (رقم ٥٣٩).

فصل

في أشياء ذكروا أن العبد لا يُسأل عنها يوم القيامة

روى عبد الرزاق وابن جرير في «تفسيريهما»، عن الحسن وقتادة أنهما كانا يقولان: ثلاث لا يسأل عنهن ابن آدم، وما خلاهن فيهن المسألة والحساب إلا ما شاء الله: كسوة يواري بها سوءته، وكسرة يشد بها صلبه، وبيت يظله.

قلت: إن لم يكن على العبد في هذه الثلاث تبعة فلا يلزم من ذلك أن لا يسأل عنها، والله تعالى أعلم.

قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم، ولم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع، بل عم بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم، لا عن بعض دون بعض.

ثم وجدت من كلام النبي ﷺ ما يدل على أن العبد لا يسأل عن هذه الثلاث، فعن أبي عسيب رضي الله عنه

قال: خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمر بي، فدعاني إليه فخرجت، ثم مر بأبي بكر، فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر، فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أَطْعِمْنَا بُسْراً». فجاء بعِذْقٍ فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، فقال:

«لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قال: فأخذ عمر العِذْقَ، فضرب به الأرض حتى تناثر البُسْرُ قِبَلَ رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أئنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال:

«نَعَمْ، إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: خِرْقَةٍ كَفَّ بِهَا الرَّجُلُ عَوْرَتَهُ، أَوْ كِسْرَةٍ سَدَّ بِهَا جَوْعَتَهُ، أَوْ جُحْرٍ يَتَدَخَّلُ فِيهِ مِنَ الحَرِّ وَالقَرِّ»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٥ / ٨١)، وهو في «صحيح الترغيب» (٣ / ٢٥٥ / رقم ٣٢٢١).

فوائد

قال ابن القيم: «التكاثر» تفاعل، وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكاثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يتكاثر به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر، كما قيل:

وَلَسْتُ بالأكثر منهم غِنى   وإنما العِـزَّةُ للـكاثِرِ

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة، ولم تضرهم، إذ لم يتكاثروا بها.

وقال: وكل من كاثر إنساناً في دنياه، أو جاهه، أو غير ذلك، أشغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة، فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه، وتكمل به وتزكو، وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة، ويسابقها إليها. فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد.

وضده: تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم. فهذا

تكاثر ملهٍ عن الله وعن الدار الآخرة، وهو جارٌّ إلى غاية القلة.

فعاقبة هذا التكاثر: قُلٌّ وفقر وحرمان.

والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله وبنعمه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً، وأحسن منه عملاً، وأغزر منه علماً، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحوقه فيها كاثره بخصلة أخرى، وهو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذموماً، ولا قادحاً في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقال: من الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثراً وتفاخراً، وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها. اهـ.

(رؤيا ترددت في ذكرها): قال أبو عمر بن عبد

البر: سمعت عبد الله بن محمد بن أسد، سمعت حمزة الكناني يقول: خَرّجت حديثاً واحداً عن النبي ﷺ من نحو مئتي طريق، فداخلني لذلك من الفرح غير قليل، وأُعجبت بذلك، فرأيت يحيى بن معين في المنام، فقلت: يا أبا زكريا، خَرّجت حديثاً من مئتي طريق، فسكت عني ساعة، ثم قال: أخشى أن تدخل هذه تحت ﴿ألهاكم التكاثر﴾[1].

وقال ابن القيم عن كلمة ﴿كلا﴾ في هذه السورة: ومن تأمل حسن موقع ﴿كلا﴾ في هذا الموضع، فإنها تضمنت ردعاً لهم، وزجراً عن التكاثر، ونفياً وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم، وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم: من أين استخرجوها؟ وفيم صرفوها؟

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٦ / ١٨٠).

قال: فلله ما أعظمها من سورة، وأجلها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظة وتحذيراً، وأشدها ترغيباً في الآخرة، وتزهيداً في الدنيا، على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقاً، وبلغها عنه رسوله وحياً.

وقال: والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أُخِذ من حِلِّه وصرف في حقه فيسأل عن شكره، ونوع أُخِذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

خاتمة

وأخيراً؛ فاحذروا إخواني أن تكونوا من الذين شغلتهم أموالهم وأولادهم وشهواتهم عن ذكر الله تعالى، وألهاهم التكاثر عن الاستعداد للقائه عز وجل، حتى أتاهم الموت على حين غرة أغفل ما يكونون عن الله تعالى والدار الآخرة، لم يُحَصّلوا من الدنيا إلا ما أوجب سخط الله وعقابه، فلا نفعهم التكاثر ولا أغنى عنهم من الله شيئاً.

قال ابن القيم: توعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً، إذا عاين تكاثره قد ذهب هباء منثوراً، وعلم أن دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعاً وغروراً، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسره أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي

شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى الناس بتكاثره، إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

فياله تكاثراً ما أثقله وزراً، وما أجلبه من غنى جالباً لكل فقر، وخيراً توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ياليتني قدمت لحياتي، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي. اهـ.

وتدبروا إخواني تحذير الله تعالى لكم وأمره إياكم قبل فوات الأوان وذهاب فرصة الإمكان:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۞ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

وانتهزوا - رحمكم الله - ما أنتم فيه من نعمتي الصحة والفراغ، قبل أن تسألوا عنهما هل رعوتموهما كما يجب، أم غبنتم فيهما أشد الغبن؟!

وقد قال رسول الله ﷺ:

«نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ».

ولا تغرنكم الشهوات التي قد زينت لكم، مهما رأيتم من حلاوتها ونضرتها، وجمالها وخضرتها، فما هي إلا ظل زائل عن قريب يُنسخ، ومزنة صيف عن قليل تَقَشّع، ثم تأتي الآخرة بخيراتها وبركاتها.

عندها يعلم كل أحد أن ما كان فيه من النعيم ليس بشيء، فكيف يُضَيَّع من أجله نعيم لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ورضوان من الله أكبر.

وإلى الاعتبار بهذا دعانا أرحم الراحمين بمثل قوله:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ

وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ * ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ .

وختاماً؛ لتكن هذه السورة ﴿ألهاكم﴾ موضع تدبركم ومحط نظركم، وما سطرته في هذه الأوراق محل اهتمامكم وأصل اشتغالكم.

وقد روى نُعيم بن حمّاد قال: قال رجل لابن المبارك: قرأت البارحة القرآن في ركعة.

فقال ابن المبارك: لكني أعرف رجلاً لم يزل البارحة يردد ﴿ألهاكم التكاثر﴾ إلى الصبح ما قَدِر أن يتجاوزها. يعني نفسه.

ذكرها الذهبي في «تاريخه».

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وكتب

محمد شومان

الفهرس

* * * * *

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ الخوف من الله تعالى.

٢ ـ المشوق إلى ذكر الله تعالى.

٣ ـ الفرار إلى الله تعالى.

٤ ـ كشف الكرب وإزالة الهم والغم.

٥ ـ أبواب الجنة.

٦ ـ غراس الجنة.

٧ ـ كنوز من تحت العرش.

٨ ـ الفردوس الأعلى.

٩ ـ الخصال الموجبة لصلاة الملائكة الأبرار.

١٠ ـ سرير المنايا.

١١ ـ مثل الحياة الدنيا.

١٢ـ اللؤلؤ المصنوع في الأحاديث والآثار التي حكم عليها النووي في «المجموع».

١٣ ـ صفات الأبرار والمقربين .
١٤ ـ صفات الزوجة الصالحة .
وكتب أخرى غيرها .

* تحت الطبع :

١ ـ تحفة العلماء في الأحاديث والآثار التي حكم عليها الذهبي في «سير أعلام النبلاء» .
٢ ـ الإلمام بالأحاديث والآثار التي حكم عليها الذهبي في «تاريخ الإسلام» .
٣ ـ شأن صلاة الفجر وما يعين على أدائها جماعة .
٤ ـ أحاديث السنن الأربعة الموضوعة .

* * * * *

التنضيد الإلكتروني والإخراج الفني : قسم الكمبيوتر في
دار الحسن للنشر والتوزيع
هاتف ٤٦٤٨٩٧٥ ـ فاكس ٤٦٤٨٩٧٥ ـ ص . ب ١٨٢٧٤٢ ـ عمان ١١١١٨ ـ الأردن